نساء المتوحشين

لقد أكثر علماء العمران من البحث في حال النساء في المجتمع الانساني وخاضت مجلاتنا وجرائدنا عباب هذا البحث غير مرة لأن الفيلسوف مبنسر كلامًا يُستطاب اعتادهُ في هذه المقالة لما فيهِ من الفوائد

ليس في الكون مظهرٌ ادلّ على تقدم النوع البشري من المقابلة بين حالة النساء عند المتوحشين وحالهنّ عند المتمدنين فترى من الجهة الواحدة انهنّ يعاملنّ بمنتهى القسوة التي لا تطاق ومن الجهة الاخرى تراهنّ في بعض الشؤون يتقدمن على الرجال

ومن الغني عن البيان ان النساء متى تعرضن لقسوة الرجال بالضرب واقلال التغذية وأكثار العمل الصعب لا يقدرن على تربية الاولاد تربية تزيد المجتمع عددًا وقوةً فلا يلبث ذلك المجتمع ان يضمحل لان تلك القسوة تعمل في الغيب فتسلب من القبيلة قدرتها على حفظ مقامها ازاء قبيلة اخرى . ولا غرو ان الام المعرضة للقسوة البالغة ولا تغذي اولادها لبأن القوة والنشاط فيكثر الموت فيهم رضعانًا وتعرو من يفوز منهم من مخالب المنية الخاطفة فينشأون نسغاً خائري القوى لا يقوون على الاحتفاظ بمقام مجتمعهم

وأكثر نساء المتوحشين يؤخذن سبيًا من قبيل مغلوب في الحرب او يكنّ في جملة السلب وقد ينال المرأة من الغالب او السارق ضربة يراد بها منعها عن الذود عن نفسها او الاستغاثة بقومها وهذه الضربة قد تكون دامية او جارحة لاحد اعضاء جسمها جرحًا يعطل ذلك العضو مدةً من الزمن . وقد يعلمها سابيها برغم فيعذب جسمها و يأخذها الى خيمه وهناك يأتي على عاتقها كل اعباء الاشغال الثقيلة

فاذا استولدها الاولاد اضطرت للاعتناء بهم والقيام على مرافقهم وهي في اوقات تفرغها عاملة على خدمة زوجها بكل جهدها . اما أكلها فلا يكون الا بقيا ما يفضل عن زوجها

فمثل هذه المعاملة القبيحة متى جرت في قبيلة يعسر تغييرها على الدوام عليها يحدث انحطاطًا ادبيًا فجسيًا ومتى وقع الانحطاط الجسمي انقلت الامراض والخاسيات حتى ان المعرضات لمثل تلك الاهانات يخسرن كثيرًا من محاسنهنّ فتجد النساء في الطبقات السفلى من البشر اقلّ جمالاً من رجالهنّ فقد ورد عن قبيلة البوتوكودو ان الرجال ليسوا على شيء من الجمال ولكن النساء في منتهى الشناعة لانهنّ يعاملن معاملة لا هوادة ولا يكاد يكن احيانًا

وقيل في اهل كوريا ان النساء في غاية الشناعة واما الرجال فانهم من احسن الاسياويين

تكثر وتوى النساء بعاملن كالبهائم . وقد يزيد في الاشياء الذ نرى بعض قبائل من اهل النظرة يحسنون معاملة المرأة بعض الاحسان و تقدير و كيف لقيمة نسائهم حميلات

الا ان تسوة الرجال على النساء وحشية معممة في قبيل لا تحول دون حصول بعض افراد النساء على شيء من السيادة والنفوذ حتى على الرجال فقد روى غير واحد من الباحثين انهُ رأى عند الفوجيين امرأةً طاعنةً في السن تسود على قومها وكذلك روى غيرهُ ان العمرين والمعرات عند الاستراليين لا يعدمون نفوذاً بين قومهم فضلاً عن ان بين كثير من قبائل المتوحشين المسرفين في ظلم نسائهم نرى الحاكمات والاميرات النافذات في القبيل كلهِ

على ان قيام امرأة وبضع نساء بالامر عند قوم لا يدل على انهم يعتبرون المرأة بمعادلة الرجل ولو اذعنوا في الاحايين لواحدة منهن لان الامل البعيد في تحكم الرجل بالمرأة يرجع الى قوتهِ وضعفها

وقد كثرت النقول الصحيحة الدالة على ان المتوحشين على اختلاف طبقات انحطاطهم في سلم اخلاق يعتبرون المرأة مُلكاً للرجل يحق لهُ التصرف فيهِ على مطلق ارادتهِ

وقد نقل هيرن عن احد شيوخ قبيلةٍ تسمى شيبوايان قولهُ . خُلقت المرأة للعمل فالواحدة من النساء تغسل او ترفع ما يسطيعهُ رجلان وانهن يصنعن لنا الخيام ويصنعن الثياب او يصلحنها ويسعين بتدفئتنا و بالحقيقة انهُ لا يستطاع السفر مسافةً في هذه البلاد ما لم يُستعن بالمرأة

وهذا الظن بالمرأة وقدرتها على العمل لا ينحصر في مثل تلك القبيلة المنحطة بل تجدهُ يخطر ببال اقوام اكثر منهم ارتقاء في سلم الحضارة فان رجال قبيلة الكفرة في جنوبي افريقية يحسبون المرأة ثور زوجها وما اشتراها الا لتعمل لهُ

ونقل شوتر عن الكفرة ايضاً ان الواحد منهم اذا قتل امرأتهُ يدافع عن نفسهِ بقولهِ اشتريتها وكفى

واحراز الزوجة بالسبي او بالشراء يجرّ الى مثل هذا الظن لان السبيَّة من قوم مغلوبين اذا اتى بها سابيها حيَّة اصبحت لهُ ملكاً لا ينازعهُ في احرازها احد كأنهُ اشتراها بمالهِ

وشراء النساء بالمال هو السبب الفعال لاسادة معاملتهن والحق ان المبادئ الادبيَّة ومصالح المجتمع كليهما يشكوان من بيع النساء وشرائهن . اعتبر ذلك بان ابا الابنة المبيعة لا يراعي ارادتها ولا يحرص على سعادتها وانما تكون الكتلة العليا لطمعهِ في ثمنها . فان كان ذلك حال الاب الطمّاع وهو لم تعطفهُ اواصر الامومة فما القول في عاطفة رجل غريب يسعى

لشراء زوجةٍ تكون في دارهِ امةً تقوم على حاجياتهِ غير عارفةٍ لذاتها وجوداً ولا ارادةً

فالاب الطماع يطلب بالفتاة ثمناً يسومهُ الزوج فيها حتى يتفقا فتخرج من دار ابيها لتكون امةً او بهيمةً في دار مالكها . فان كانت عقيماً ولم ترزق البنين حق لزوجها ان يبيعها كما اشتراها لتكون رقًّا لغيرهِ ذلك ان لم يعطف ابوها عليها فيرد لزوجها الثمن الذي اشتراها بهِ

وفي بعض الانحاء الافريقية يطلب الاب من الخاطب ما يقدر على ادائهِ ثمناً لابنتهِ من البقر والثياب والاساور . والزوج حق بيع امرأتهِ فهذا الانحطاط في شأن المرأة حتى يؤخذ بديلها من الثيران والبقر وغيرها من البهائم والمتاع يجعلها تعتبر معادلةً لتلك البُهم . وحالما هذا نتاج تسلط الرجل المطلق وقيام حب الذات فيهِ قياماً لا موضع معهُ للغيريَّة

واعظم مظاهر الجور والامتهان ما يشاهد عند قوم من ان الرجل اذا مات عن زوجةٍ انتقلت بالارث لذوي قربائهِ . روى سمث عن المابوشه ان الارملة عندهم متى مات زوجها ملكت قياد نفسها ما لم يكن قد خلَّف اولاداً من غيرها فتبنوا فانها حينئذٍ تصبح ملكاً لهم جميعاً لانها تحسب من جملة المتاع المتروك لهم ارثًا

فنتج من هذه الامثلة ان المرأة عند المتوحشين متى اشتراها رجلها او سرقها او سباها تصبح ملكاً لهُ يتصرف فيها على اهوائهِ غير مراعٍ ميلها وارادتها

وثمَّت سبب آخر وهو توزيع الاعمال بين الرجال والنساء ومجال المشاهدات فيهِ متسع يمتد من بين ادنى طبقات الناس الى من يعلوهم في سلم الحضارة بعض الدرجات ولذلك استدل الباحثون على كثيرٍ من اعمال المرأة في تلك المجتمعات المنحطة . فيناط بالمرأة كل عملٍ كبيراً كان او صغيراً ما لم يكن مما تقصر عنهُ قوتها البدنية او نشاطها وذكاؤها . اما الرجل فان عملهُ ينحصر في ما يحتاج الى القوة . فقد عرف ان نساء قبيلة القاسان التي انقرضت لهذا العهد كن يتسلقن الاشجار ويحفرن الارض بحثاً عن بعض اصول النبات الذي يأكلونهُ ويخضن مياه الشواطئ ليلتقطن الاصداف والمحار ويصطدن الاسماك ويرجعن الى بيوتهن ليعتنين باولادهن اما رجالهن فانهم يقتصون الحيوان لما في القنص من بذل القوة والجهد

ومتى كانت مآكل قوم من لحوم الحيوانات الكبيرة تصبح اعمال النساء قاصرةً على حمل ما يصطاد رجالهن الى البيت حيث يؤكل اللحم وتعتني المرأة بمعالجة الجلود وتجفيفها للانتفاع بها ومثل هذا تجد اولئك الرجال اذا غزوا وسلبوا حملوا غنائمهم الى بيوتهم فسلموها لنسائهم ليعتنين بها

واعظم من هذا ما يشاهد عند الاسكيمو فان النساء مطالبات ببناء البيوت حتى انهنّ ليحملن على عواتقهنّ الحجار الضخمة التي تكاد تدق رقابهنّ كل هذا والرجال ناظرون اليهنّ يكادون لا يحركون اصبعاً في معونتهنّ

وفي كثير من القبائل ترى النساء مطالبات بنقل اثاث البيوت من موضع الى اخر والرجال جالسون لا يبالون ولا ينحصر هذا في القبائل الرحّل والمجتمعات المحطة فقط بل قد يتجاوزها الى مجتمعات اعلى منها كالقبائل ذات الانعام والتي تعرف الزراعة وتستغل الارض بعض الشيء فقد كتب ماركراف عن قبيلة التربس انهم متى رحلوا يحمل الرجل سلاحه فقط ويسير واما المرأة فانها تحمّل كما يحمل البغل

ولقد تعلّل بعضهم اعذاراً لاولئك الرجال الذين يلقون اعباء العمل على نسائهم من غير ما مساعدة منهم قالوا ان الرجال يقضون ايامهم في الصيد والقنص تحصيلاً لرزقهم ورزق عيالهم وتشديداً لعزائمهم فاذا رجعوا الى بيوتهم تكون اعمالهم قد انهكتهم تعباً فلا يقوون على مشاركة النساء في اعمالهنّ التي يحسبونها اخف تعباً وانهم لا يحملن شيئاً في رحلاتهم غير سلاحهم ليكونوا على اهبة لقاء الاعداء ومقاتلتهم اذا داهموهم

ومتى تحضر المجتمع اختلف توزيع الاعمال فصار الرجل يقوم باعمال البناء ولكن لم يتلف وجود النساء بين البنائين ومثل ذلك نطع الاشجار واغرب من هذا ان معالجة الطعام واضرام النار وامثال ذلك تعد من اعمال الرجل ولو كان زعيماً في قومه واما البيع والشراء بين المتوحشين والزائرين عنهم قليلاً فهما ايضاً من خصائص الرجل ولكن بعض المجتمعات تمنح النساء حق الاتجار فتجد اسواق جاوى غاصة بالنساء التجرات

وكأن الرجال والنساء قد تبادلوا اعمالهم في بعض المواضع حيث ترى النساء يبعن ويشترين ويعملن كل اعمال الرجال بينما يكون رجالهنّ جالسين في البيوت ينزفون او يحيكون او يعملون الاعمال النسائية الاخرى . والذي ارى ان هذا التبادل في العمل نتيجة انقلاب حال الرجل من الشدة والتمرّن على السلاح الى الخمول والتخنث . وعقبى استمرار النساء على الاعمال العسيرة التي يضطررن اليها مرضاة لرجالهنّ وتنفيذاً لرغائبهم وجورهم فيهنّ حتى سئمن يعملن اعمالهم . وهذا التخنث بلغ في بعضهم حداً جعلهم يحسبون العار لاحقاً بالرجل الذي ينزل السوق للبيع والشراء

وكأنهم خلطوا بين الاعمال فاصبح الرجل يهان اذا حمل قربة ماء او اذا خبز عجيناً ولكنهُ لا عار عليهِ اذا غسل الثياب من غير ان تسعفهُ المرأة . وفي مجتمعات اخرى تعاف

النساء الخياطة جملةً فان مست الحاجة اليها قام بها الرجل

كل هذا الاجمال يدل ان انفة الرجل الفطري وشدة بأسه حملتاه على اختيار الحرب والصيد والاستئثار بهما عملاً وترك ما عداهما للمرأة . واذا اعتبرت حالة المجتمعات الاولى ترى هذين العملين اي الحرب والصيد من اشد الحاجيات لزوماً ليس فقط لقيام المجتمع بل لحفظ بقاء الفرد . ومتى اضطر المجتمع الى الذود عن حاله لا يجد من يعتمده الاَّ الرجال لانهم اشداء واما النساء فالغالب فيهنَّ الضعف ولكنَّ ضعفهنَّ نسبيٌّ اي بمقابلة قوتهنَّ بقوة رجالهنَّ والت تعلم ان الحمل والولادة والرضاع تجعل المرأة في حالةٍ لا يستطاع معها القيام باعمال الحرب والصيد ومع ذلك فقد وجد في بعض المجتمعات نساء شاركن الرجال في الحرب والقتال وحسبك شاهداً المحاربات المعروفات بالامازون

وفي بعض المجتمعات ترى الصيد والقنص ميسوراً يستطاع اخذهُ على هينةٍ ويستوي فيهِ الرجل العاجز والقويّ والمرأة والصبي ففي مثل ذلك المجتمع لا تجد حالة النساء منحطةً كحالة سائر النساء عند المتوحشين لانهنَّ ولئن كنَّ كغيرهنَّ يحسبن ملك الرجل وتحت تصرفهِ فان لمنَّ رأياً وكلمةً في المجتمع . وفوق هذا فان النساء اللواتي ينهضن مع رجالهنَّ للحرب كما في الداهومي ترتفع منزلتهنَّ وحسبك ان الرجل في تلك القبيلة يخامل امرأته ولكنها لا تنال تمام حقوقها بالنظر لجنف الرجل وجورهِ

ويستفاد من هذا ان فرق العمل بين الرجل والمرأة هو السبب الاهم في انحطاط النساء الا ترى ان الرجل الذي يقدم على الاعمال الكبرى كالحرب والصيد وهما للذود عن المجتمع وحفظ بقائهِ يحسب نفسهُ قد اتمَّ عملاً مهمًّا لا لقدر على عملهِ شريكة حياتهِ فلا ينظر اليها بعين الاعتبار . يؤيد هذا انهُ في المواضع التي زال بها السبي واستولى العمل او كاد بطل اثر الفرق بينهما وكادا يستويان واما الفارق الآخر الذي ذكرناهُ اولاً اي شراء المرأة او امتلاكها سبياً او اختطافاً فهو فاعلٌ ايضاً في حطتها عن مالكها يؤيد هذا ما عرفناهُ من ان بعض القبائل التي لا تبيع بناتها بيعاً بل توجب على خطابها ان يخدموا اباها فيكافئهم عن خدمهم باعطاء البنت فان حالة الفتاة تكون ارقى لان زوجها تدانى الى خدمة ابيها سعياً في الحصول عليها فلا يسعهُ ان تنال من زوجها غضاضةٌ لا سيما وانها مدى وجود خطيبها قائمةً في خدمتها تفع بينهما المجاملة والملاطفة والاستئناس وربما دب الحب

وليس ما ذكرنا كل ما في الوطاب من شأن النساء في المجتمعات الجمة بل ثمت مواضيع شتى يحسن الالمام بها ولعلنا نعود الى هذا البحث في فرصة اخرى

م . ن

بعض الصور الشمالية من صور السماء